مجلة الشهاب • المجلد: 10، العدد: 01 (2024م) • ص ص 33 - 44
(ISSN: 2477-9954, EISSN: 2602-5485)
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/391

مشكل تأويل القرآن الكريم في التراث الإسلامي ـ نماذج مختارة ـ

The problem of the Holy Quran's interpretation in Islamic heritage - selected models-

عبود حميودة *
مخبر التراث الأدب الجزائري الرسمي والهامشي، جامعة سكيكدة (الجزائر)
abboud.hamiouda@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2023/06/09 | تاريخ القبول: 2023/10/04 | تاريخ النشر: 2024/03/15

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص: يهدف هذا المقال إلى إبراز تيارات التأويل في التراث الإسلامي، ومحاولة إعطاء صورة متكاملة عن أهمية التأويل في الوصول إلى الدلالة الباطنية للنص القرآني، كما يبين الجدل القائم في فهم المعنى المركزي للخطاب القرآني بين هذه التيارات، وكيف ظهر مشكل تأويل القرآن كقضية خطيرة في الفكر الإسلامي، تولد عنها تيارات ومذاهب ومدارس تفسيرية، لها الحظ الكبير في الممارسة التأويلية الوسطية عند بعضها، والفاسدة عند بعضها، والمقبولة عند بعضها، وكلها تدعي أنها الأحق بالاتباع.

الكلمات المفتاحية: القرآن؛ التأويل؛ التفسير بالمأثور؛ التفسير بالرأي.

Abstract: This article aims to highlight the currents of interpretation in the Islamic heritage and trying to give an integrated picture of the importance of interpretation in reaching the esoteric significance of the Quranic text.It also shows the controversy in understanding the central meaning of it between these currents and how the problem of the interpretation of the Quran emerged as a serious issue in lslamic thought that generates currents ,doctrines,and interpretative schools that have great luck in the moderate interpretative practice for some,corrupted for some,and acceptable for others.all of which claim that they have the right to be followed.

Keywords: Interpretation; Quran; interpretation by Tradition; Interpretation Oinion.

1. مقدمة

البحث في مجال التأويل في التراث الإسلامي يفتح الكثير من القضايا التي ارتبط وجودها بالنص القرآني الكريم والحديث النبوي الشريف، فهو آلية تنفتح على النص للوصول إلى باطنه متجاوزة المعاني الظاهرية المباشرة، إذ يقدم أولوية الفهم للمعاني الخفية في البنى العميقة، ومحاولة إيجاد قراءات متعددة تستند إلى حجج وبراهين منطقية مقبولة، وقد اتخذ كأبرز آلية في فهم الخطاب القرآني، وقدم قراءات استغلق فهمها لطروحات كبرى وقضايا مختلفة تناولها هذا الخطاب، لأنه يقوم على التعددية في الفهم، فلا يوجد معنى واحدا للنص، ولا فهما واحدا للدلالة، ويعود ذلك إلى تعدد مستويات

* المؤلف المراسل.

المعرفة، ومهمة التأويل هي القدرة على تحريك المستويات والانتقال من مستوى إلى آخر.

يعود ظهور التأويل إلى قديم الزمان، وارتبط في البداية بالنصوص الدينية، لكن مفهوم المصطلح اتسع في تطبيقاته في الفكر الحديث، فتجاوز تأويل النص الديني إلى ميدان العلوم الإنسانية كالتاريخ وعلم الاجتماع والانتروبولوجيا، والنقد الأدبي وغيرها، أما في الإسلام كان للتأويل دور هام في فهم النص القرآني والحديث النبوي قصد تبيان معانيهما، كما ظهرت أولى محاولات التأويل في الإسلام في الفترة التي أعقبت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث برزت الحاجة لفهم النص القرآني بشكل أعمق، خاصة بعد التحولات الاجتماعية والتاريخية التي مر بها المسلمون في المنطقة العربية، وتطور الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ما أدى ذلك إلى ظهور مدارس وفرق إسلامية مختلفة الملل والنحل، وكلها تصبوا إلى تقديم قراءة للنص القرآني من منطلقات المدرسة أو الاتجاه المتبنى، لتقوم إشكالية هذا المقال كالآتي:

كيف ساهم التأويل في إبراز المفاهيم المستغلقة داخل النص القرآني؟ ولماذا أعطت الممارسة التأويلية للنص القرآني مفاهيم متعددة وهو كتاب مقدس منزل من السماء؟ وهل يضرب هذا التعدد بقدسية القرآن حين تتعدد القراءة في الآية الواحدة؟

تكمن أهمية الدراسة في التعريف بأهم اتجاهات التفسير التي عنيت بفهم القرآن الكريم، وعن أسباب ظهور مشكل تأويل القرآن في التراث الإسلامي، وكيف عولجت مسألة الفهم للآيات المتشابهة، كذلك الوقوف عند أهمية التأويل كآلية مهمة ولازمة في التعامل مع النصوص الدينية، وكيف تساهم في بلورة المفاهيم والخروج من دائرة المستغلق والمبهم.

التأويل في التراث الإسلامي مهم تستجوبه طبيعة بعض السياقات القرآنية ذات النسق المبهم في الدلالة، لذلك فالخوض في مسألة التأويل فيه تعددت، نجد من بين هذه الدراسات السابقة "فهم النص وممارسات القراءة عند فلاسفة الإسلام "قانون التأويل" لأبي حامد الغزالي" وهو مقال منشور للدكتورة جميلة قوجيل، أيضا "تأويل القرآن الكريم في الدراسات الصوفية من خلال أبي حامد الغزالي" وهو مقال منشور للباحثتين "قديدر مليكة وعقون مليكة".

من أهداف هذا البحث هو التعرف، على أكبر الاتجاهات التفسيرية في التراث الإسلامي التي عنيت بفهمه وتقديم قراءات واضحة في الآيات المشكل فيها المعنى، وأيضا إعطاء صورة متكاملة عن أسباب فهم الخطاب القرآني.

2. التأويل في التراث الإسلامي

1.2. مفهوم التأويل:

جاء في لسان العرب «أول الكلام وتأوله دبره وقدره، واوله وتأوله، فسره، المراد بالتأويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ، والتأول والتأويل تفسير الكلام

الذي يختلف معانيه ولا يصح إلا ببيان غير لفظه»[1]. فالتأويل في اللغة التفسير والتدبر وإخراج الكلام من ظاهره إلى أصله.

أما في الاصطلاح فقد تعدد المفهوم «وكلمة التأويل تطلق عند علماء السلف ويراد بها: تفسير الكلام وبيان معناه سواء كان موافقا للظاهر أم مخالفا له»[2]. بمعنى أن التأويل يهتم بظاهر الآيات وباطنها. وهو أيضا «القاسم المشترك بين الحضارات، لا تكاد تخلو أي حضارة منه، هو عصب الحضارة، وعمودها الفقري، تتجمع فيه نظرية المعرفة وأساليب الحراك الاجتماعي، لا تقطع مع الماضي كما هو الحال في الاتجاهات العقلية الجذرية والحداثية»[3]. لأنه يهتم بالفهم ومحاولة الوصول إلى الدلالة النواة أو المركزية، ولا يقتصر على أمة معينة، بل هو ممارسة متعددة المستويات في مختلف الثقافات.

2.2. بين التفسير والتأويل:

لم يفرق في التراث الإسلامي القديم بين "التفسير والتأويل"، فالمفسر هو المؤول للنص القرآني «التفرقة بين التفسير والتأويل تفرقة اصطلاحية متأخرة، فالطبري مثلا يسمي تفسيره "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" وابن عباس يرى أنه يعلم تأويل القرآن، وتؤكد الروايات أن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا لابن عباس فقال: اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل»[4]. ففي البدايات التاريخية لفهم النص القرآني، لم يفرق بين المصطلحين «والتأويل كلام كثير من المفسرين، كابن جرير ونحوه، ويريدون به تفسير الكلام وبيان معناه، سواء وافق ظاهره أو خالفه، وهذا اصطلاح معروف وهذا التأويل كالتفسير يحمد حقه»[5]. إلا أن الفرق اتضح أكثر في القرون اللاحقة، فالمفسر ليس هو المؤول، واتضحت الحدود الفارقة بينهما «ويظهر وجود التباين في كون أن التفسير يتعلق بالرواية، أما التأويل فيتعلق بالدراية"، ذلك أن التفسير معناه الكشف والبيان، عن مراد الله تعالى لا يكون إلا بالنقل الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم(...) وأما التأويل فملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل، والترجيح يعتمد على الاجتهاد ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب»[6]. كما أن الفرق يتضح في كون «التفسير يستند إلى الحقائق اللغوية والتاريخية التي حكمت ظهور النص، أما التأويل فهو عبارة عن جهد عقلي من أجل تملك النص وإخضاعه لمفاهيم وتصورات القارئ»[7]. إلا أن التأويل له القدرة أكثر في التعامل مع النص القرآني، باعتباره أحد أهم الأنشطة الرئيسية في الدراسات الإسلامية، وفي تدريس العلوم الشرعية، لتتطور آليات التأويل على مر العصور، مع العلماء والمفسرين الذين وضعوا الأسس

---

[1]. ابن منظور: لسان العرب، ج 01، ص 264.
[2]. صلاح عبد الفتاح الخالدي: التفسير والتأويل في القرآن، ص 19.
[3]. حسن حنفي: حصار الزمن، الجزء الأول إشكالات، ص 71.
[4]. نصر حامد أبو زيد: فلسفة التأويل، ص 13
[5]. أبو حامد الغزالي: قانون التأويل، ص 05.
[6]. صلاح عبد الفتاح الخالدي: التفسير والتأويل في القرآن، ص 08.
[7]. مصطفى كيحل: الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، ص 98.

العلمية للتأويل، وقاموا ببناء مناهج وأساليب تفسيرية، وقد تباينت بتباين الإطار الفكري والثقافي والإسلامي.

3. اتجاهات التفسير في التراث الإسلامي

1.3. التفسير بالمأثور:

في بادئ الأمر كان المفسرون يفسرون ويجتهدون في فهم الخطاب الديني، وخاصة القرآن الكريم حين يستصعب الفهم في بعض أنساقه، ومن هنا برز في التاريخ الإسلامي لفهم القرآن الكريم اتجاهين كبيرين «هناك في تراثنا القديم، وعلى مستوى تفسير النص الديني (القرآن) تلك التفرقة الحاسمة بين ما أطلق عليه "التفسير بالمأثور وما أطلق عليه "التفسير بالرأي أو التأويل" وذلك على أساس أن النوع الأول من التفسير يهدف إلى الوصول إلى معنى النص عن طريق تجميع الأدلة التاريخية واللغوية التي تساعد في فهم النص فهما موضوعيا»[1]. وهو الاتجاه المحمود عند كثير من الفقهاء ورجال الدين «هو التفسير الذي يعتمد على صحيح المنقول ما لم يرد فيه نقل صحيح (...) وهو أفضل أنواع التفسير وأعلاه»[2]. لأنه ينطلق من المنقول ويجعله الأساس، ويلغي العقل وما له من سقطات حسبهم.

2 .3 التفسير بالرأي:

وهو التفسير الذي قام فيه جدل كبير، فرفضه البعض، وأيده بعض آخر «والمراد بالرأي الاجتهاد، ويسمى هذا اللون من التفسير (التفسير بالاجتهاد) و(التفسير بالدراية)، و(التفسير بالعقل)، و(التفسير بالرأي)»[3]. وهذا الاتجاه هو الذي كان محل الجدل بصفة أكثر وضوحا في التراث الإسلامي، حيث نشأت فرق إسلامية ومذاهب أوغلت في تأويل القرآن، فكان لها الحظ الكبير من الزيغ والضلالة والغلط.

3 .3. جدل التفسير بالرأي

إن التفسير بالرأي، أو كما يسميه نصر حامد أبو زيد "التأويل" ضم اتجاهات كثيرة فاسدة، ساهمت في تأويل النص القرآني، لأن أصحابه ينطلقون من الذاتية المفرطة في تقديمهم لفهم مختلف الأنساق اللغوية داخل الخطاب، مستندين في ذلك إلى حجج يبطلها أصحاب الاتجاه الأول «بينما كانت النظرة إلى أصحاب الاتجاه الثاني وهم الفلاسفة والمعتزلة والشيعة والمتصوفة نظرة حذر وتوجس، وصلت في أحيان كثيرة إلى التكفير وحرق الكتب»[4]. ويعود سبب هذا التكفير والتغليط في ممارساتهم التأويلية لأسباب مختلفة «وجدت بعد عصر الصحابة والتابعين فرق إسلامية متعددة، وجماعات من غلاة الصوفية وغيرهم، كل منها تدعي أنها على الحق القويم، وأن غيرها يعيش في ظلال مبين وحاولت كل منها

[1]. نصر حامد أبو زيد: الهرمنيوطيقا ومعضلة تفسير النص، ص 13.
[2]. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي: أصول التفسير ومناهجه، ص 83.
[3]. المرجع نفسه، ص 93.
[4]. نصر حامد أبو زيد: فلسفة التأويل، ص 142.

تطويع النص القرآني لمبادئها، وتحريف الكلم عن مواضعه، مناصرة لمعتقداتها وميولها»[1]. كما يؤكد الإمام الذهبي على ذلك، «بدأ ذلك أولا على هيئة محاولات فهم شخصي، وترجيح لبعض الأقوال على بعض، وكان هذا أمرا مقبولا ما دام يرجح الجانب العقلي منه إلى حدود اللغة ودلالة الكلمات القرآنية، ثم ظلت محاولات هذا الفهم الشخصي تزداد وتتضخم متأثرة بالمعارف المختلفة، والعلوم المتنوعة، والآراء المتشعبة، والعقائد المتباينة، وتحكمت الاصطلاحات العلمية، والعقائد المذهبية في عبارات القرآن الكريم فظهرت آثار النحل والأهواء فيه ظهورا جليا»[2]. والإمام الذهبي هو من أصحاب الاتجاه الأول، ولكنه لا ينفي التفسير بالرأي، وإنما يذكر بعض الفرق التي غالت في التأويل في هذا الاتجاه، والحق أن القرآن الكريم يدعو في أكثر من مناسبة وسياق إلى إحكام العقل والتدبر في أمور الكون، وهي حجة انطلق منها أصحاب هذا الاتجاه في التأسيس لفهم القرآن، أي بالاعتماد على العقل والاجتهاد الشخصي «أما القائلون بجواز التفسير بالرأي، فقد استدلوا على صحة مذهبهم بأدلة من القرآن ومن السنة وبآثار مروية عن الصحابة والتابعين وبأدلة عقلية»[3]. وهي الأساس والمعول عليها في إبراز أفكارهم وإيجاد تأويل لكل القضايا التي خفي فهمها واستصعب، لأن الحجج المؤسس عليها آراؤهم قوية تعضدهم وتؤشر بصحة المأخذ، وصواب الرأي.

في حين نجد الاتجاه المانع استدل أصحابه بأدلة من القرآن والسنة على بطلان تأويلهم، وأبرز من مثل هذا الرأي "ابن تيمية" «ذهبوا إلى أن المعرفة الدينية لا تتطور وأن جل الصحابة والتابعين قد أوتوا المعرفة الكاملة فيما يتصل بالوحي ومعناه، وأن التمسك بمعرفتهم هو العاصم من الزلل والانحراف، وهكذا انتهى الأمر بهم إلى عزل المعرفة الدينية عن غيرها من أنواع المعرفة من جهة، وإلى إنكار تطور المعرفة الإنسانية من جهة أخرى»[4] وابن تيمية يحرمه جهرا، يقول «أما تفسير الرأي بمجرد الرأي فحرام»[5].

ليطرح السؤال: لماذا رفض التفسير بالرأي وسُفه وغُلط وأُعتبر فاسدا لا يجوز الأخذ به؟

إن خلو المؤول من الأدوات المعرفية واللغوية تجعل النص القرآني منفتحا على قراءات غير مؤسسة وغير واعية لقدسية النص الذي بين يديه، فهو بذلك ينتج نصا يتجاهل الركائز الأساسية لمهمته، ويتغافل عن عظيم الأمر الذي هو فيه «واعلم أن بعض الناس يفتخر ويقول: كتبت هذا وما طالعت شيئا من الكتب، ويظن أنه فخر ولا يعلم أن ذلك غاية النقص، فإنه لا يعلم مزية ما قاله على ما قيل، ولا مزية ما قيل على ما قاله فبماذا يفتخر»[6]. فإن أولى آليات الاجتهاد في التفسير أن يكون صاحبه عالما بلغته

[1]. جمال مصطفى النجار: التفسير بالرأي، ص 39.
[2]. محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، ص 108.
[3]. جمال مصطفى النجار: التفسير بالرأي، ص 38.
[4]. نصر حامد أبو زيد: فلسفة التأويل، ص 12.
[5]. ابن تيمية: مقدمة في أصول الفقه، ص 105.
[6]. الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ص 24.

وأساليبها ومختلف ضروبها.

ولكي تُتجاوز هذه الإشكالية، ذهب الكثير من أصحاب الرأي إلى تقسيم التفسير بالرأي أو التأويل إلى قسمين، محمود ومذموم.

التأويل المحمود: «وهو التفسير المستمد من القرآن ومن سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان صاحبه عالما باللغة العربية، خبيرا بأساليبها، عالما بقواعد الشريعة وأصولها، والمفسر يبدل جهده ووسعه في فهم النص القرآني وإدراك معنا مستندا إلى اللغة والنصوص والأدلة الشرعية»[1]. ما جعل الكثير من المفسرين يقرون وجوده منذ العصر الأول لبداية فهم القرآن الكريم مع ابن عباس وبعض الصحابة رضوان الله عليهم.

التأويل المذموم: وهو تأويل فاسد، والأخذ به والقول بما جاء به باطل «وهو تفسير بمجرد الرأي والهوى، فهو تفسير لا يستند إلى نصوص الشرعية، وأكثر الذين فسروا القرآن بمجرد الرأي هم أهل البدع والمذاهب الباطلة، فقد اعتقدوا معتقدات باطلة وآراء زائفة ليس لها سند ولا دليل ثم أرادوا أن يستدلوا لها من القرآن الكريم فلم تطاوعهم نصوصه على ما ذهبوا إليه ففسروها بآرائهم، وحملوها ما لم تحتمل من عقائدهم»[2]. ومثل هذه المذاهب قد زاغت وضلت وأضلت كثيرا

4. مشكل تأويل القرآن

4. 1. متشابه القرآن

لم تكن القراءات المتعددة لبعض آيات القرآن الكريم من باب الاستحسان، أو من باب رفعة وعلو هذا الكتاب، لأن أغلب من قدموا قراءات له إنما انتصروا لمذاهبهم وعقيدتهم، متغافلين قدسية النص الرباني، والأبعاد الخطيرة الناتجة عن هذه العملية، لأنه حين ما يصل الأمر إلى تكفير طوائف وزندقتها، فذلك يعني أن الجدل والخصام بين، وأن الضلالة والزيغ وقع في فهم الآية الكريمة من سورة آل عمران ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾[3] . هذه الآية الكريمة التي تبين وجود المتشابه في القرآن، أي المشكل الغامض المبهم، وبين راسخ في العلم، وبين علم الله المختص والواحد الأحد المتفرد، خطت الفرق لنفسها خطَ الرسوخ في العلم والتأويل، وأعطت لنفسها حق الفهم المستبين، وفتح المغلق والمبهم، وما يهمنا في الآية الكريمة أنها تؤكد وجود المتشابه في القرآن الكريم، فما

[1]. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي: أصول التفسير ومناهجه، ص 93.
[2]. المرجع نفسه، ص 96.
[3]. سورة آل عمران، الآية 07.

المتشابه؟ وكيف فهمت هذه النماذج القرآنية؟

كانت الآيات المتشابهة محل الجدل والتأويل، ومحل الاختلاف والنظر من قبل المفسرين قديما وحديثا، لأنها آيات لا يصرح فيها بالمعنى مباشرة، «منذ فترة باكرة جدا ارتبط تأويل القرآن بالخلاف حول المحكم والمتشابه من جهة، وبالخلافات السياسية والعقائدية من جهة أخرى»[1]. والمتشابه «المتشابه في المعنى، والخفي في الدلالة، والمبهم في الهدف، مما يحتاج إلى بيان، أو تأويل كآيات الصفات مثلا»[2]. وهو أيضا «اللفظ المحتمل لوجوه من المعاني، وكان موضع ريب وشبهة، ومن ثم هو كما يصلح للتأويل إلى وجه صحيح يصلح للتأويل إلى وجه فاسد لذا كان فيه مطمع أهل الزيغ»[3]. فالآيات المتشابهة هو ما لم يأت فيها المعنى ظاهرا صريحا، فيحتاج فهمها اللجوء إلى آليات لغوية ومعرفية، وتحري الأمانة والانتصار لكتاب الله دون الانتماء الطائفي أو المذهبي، لكن هذا لم يكن، وكانت الآيات المتشابهة مدخلا للطعن في قدسية القرآن، وبابا للقول الجدل والمختلف غير المقبول أغلبها، الحسن بعضها، المطمئن بعضها الآخر.

4. 2. ابن قتيبة ومشكل تأويل القرآن:

تصدى ابن قتيبة لكثير من أصحاب الزيغ والأهواء، وهو من أهل السنة والجماعة الذين دافعوا عن قدسية القرآن، وعملوا على فهمه، وإعطاء تأويل متكامل حسن تسكن إليه القلوب وتطمئن لقراءته «وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا واتبعوا "ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله" بأفهام كليلة وأبصار عليلة، ونظر مدخول، فحرفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله ثم قضوا عليه بالتناقض، والاستمالة واللحن، وفساد النظم والاختلاف»[4].

استمد ابن قتيبة علمه ومعرفته الدينية وآلياته التأويلية من خلال معرفته باللغة العربية، والتمكن فيها والأخذ بأساليبها وقواعدها ونظمها "لقد اعتمد ابن قتيبة على علم الأصوات في تأويلاته للقرآن الكريم كما استعان بعلمي الصرف والنحو وعلم البلاغة في تبيان المشكل والمتشابه"[5]. وهذه الآليات التي اعتمدها ابن قتيبة مستمدة من علمه الواسع وثقافته المنفتحة على جميع علوم العربية.

بدأ ابن قتيبة في الرد على الذين حملوا مفردات ومعاني القرآن في القراءات القرآنية، حيث استغلها بعض المذاهب للضرب في معاني القرآن وسلامته «أما ما اعتلوا به في وجوه القراءات من الاختلاف فإنا نحتج عليهم بقول النبي صلى الله عليه وسلم "نزل القرآن على سبعة أحرف، كلها شاف كاف، فاقرءوا كيف شئتم»[6]. ثم يذكر ابن قتيبة وجوه الاختلافات في القراءات بين نحوية وإعربية وصرفية، وكلها لها

---

[1]. نصر حامد أبو زيد: الاتجاه العقلي في التفسير، ص 141.
[2]. الكسائي: متشابه القرآن، تح: صبحي التميمي، ص 07.
[3]. عبد الرسول الغفاري: المحكم والمتشابه، ص 28.
[4]. ابن قتيبة: مشكل تأويل القرآن، ص 22.
[5]. ينظر: العيزوزي لخداري: المشكل والمتشابه وآليات تأويله في القرآن الكريم عند ابن قتيبة 09.
[6]. ابن قتيبة: مشكل تأويل القرآن، ص 23.

قواعدها المستنبطة من علوم العربية، أي أن القراءات السبعة لها ما يؤسسها في علم العربية، فالتقديم والتأخير والزيادة والنقصان، أو الحذف كلها من باب العربية، وضرب من اتساعها.

يقول ابن قتيبة «ولو أن قارئا قرأ ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾[1]. وترك طريق الابتداء بـ إنا وأعمل القول فيها بالنصب على مذهب من ينصب "أن" بالقول كما ينصبها بالظن، لقلب المعنى على جهته وأزاله عن طريقته، وجعل النبي عليه السلام محزونا لقولهم "الله يعلم ما يسرون وما يعلنون، وهذا كفر ممن تعمده، وضرب من اللحن لا يجوز الصلاة به»[2]. والاختلاف في بنية الكلمة فيه تغاير وتبدل للمعنى، ودليل على لغة القرآن لغة دقيقة المسلك، بديعة النظم، لا يجيد التعامل معها إلا من اختط لنفسه باعا طويلا في أساليب لغته.

أما في قضية المجاز والذي أفرد له بابا "باب في قول المجاز"، فنجده قد أعطى رأيا خاصا رصينا، اجتهد فيه في بيان المجاز وشرح أغواره البلاغية «وأما المجاز فمن جهته غلط كثير من الناس في التأويل وتشعبت لهم الطرق»[3]. قائلا بوجوده في القرآن «أن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها، ومذاهبها في الايجاز والاختصار والإطالة والتوكيد والإشارة إلى الشيء، وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه إلا اللقن، ولو كان القرآن كله ظاهرا مكشوفا حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل، لبطل التفاضل بين الناس، وسقطت المحنة، وماتت الخواطر»[4].وقد كانت طريقة عرضه للآيات التي وجد مجاز فيها ، كعالم ورع تقي، عالم بأسرار العربية وكنهها، رادا بذلك على الذين أنكروا وجود المجاز في القرآن «ورجل يضع نفسه هذا الموضع، ويعرضها للمعاندين والطاعنين، الذين يدلون بما وسعتهم الحجة في الإدلاء به لا بد أن يكون على حظ من المعرفة بالعرب ولغاتها وفنون العبارة عن المعاني، وما من آية فيها شبهة، أو عبارة فيها خفاء إلا أورد لها نظائر وأمثالا من مأثور القول عند البلغاء والفصحاء المشهود لهم بالتمكن»[5]. فسلك مسلكا دقيقا وهو يرد على الطاعنين من أصحاب البدع والأفهام القاصرة. «وقالوا في قوله للسماء والأرض:﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾[6] لم يقل ولم يقولا ، وكيف يخاطب معدوما؟ وإنما هذه عبارة: لكوناهما لكانتا، كقول الشاعر:

شكا إلي جملي طول السرى

والجمل لم يشك، ولكنه خير عن كثرة أسفاره، وأتعابه حمله، وقضى على الجمل بأنه لو كان متكلما لاشتكى. [يرد عليهم ابن قتيبة فيقول]: وما في نطق جهنم ونطق السماء والأرض من العجب؟ والله تعالى

---

[1]. سورة يس: الآية 76.

[2]. ابن قتيبة: مشكل تأويل القرآن، (م س)، ص 15.

[3]. المصدر نفسه ص 103

[4]. المصدر نفسه، ص 86.

[5]. بدوي طبانة: البيان العربي، ص 21،

[6]. سورة فصلت: الآية 11.

ينطق الجلود، والأيدي والأرجل، وسخر الجبال والطير، بالتسبيح»[1]. وابن قتيبة في كثير من المواضع لا يفرق بين الحقيقة والمجاز، كما يلاحظ في النموذج، إلا أنه يضع الحقيقة موضع المجاز في المواضع التي يصح فيها الحقيقة، ويلغى فيها المجاز، وتجد لكلامه قبولا ولا تناقضَ فيه ولا فسادَ في تأويله. «فابن قتيبة بهذا المحفوظ يؤيد به قوله، ويستظهر به على فهمه للكتاب وضروب المجاز فيه، ولكنه يعمد في كثير من الأحيان إلى إعمال فكره، فيهديه البصر السليم والإدراك الصحيح للمعنى الكريم الذي لا يؤثر فيه طعن طاعن أو شبهة مشبه»[2].

لم يكن ابن قتيبة من الذين زاغوا في تأويلهم للقرآن، فكان فهمه حسن غير فاسد، لا تعتريه شائبة ولا غلو، مستندا في تأويله للقرآن والحديث وأثر الصحابة ومختلف كلام العرب، وقد اعتمد على عقله أي اجتهد في حله للكثير من المسائل المستغلقة.

4. 3. أبو حامد الغزالي وتأويل القرآن:

يظهر الغزالي في فهمه للخطاب القرآني أنه متشبع بالثقافة الفلسفية والفكر الصوفي، وأن كتاباته مليئة بتأملات عميقة، وأسلوب مكتظ بالحجج والبراهين العقلية، وله نهج قويم ويكفي أنه لقب بحجة الإسلام.

كتب الغزالي في التأويل وتحدث عنه طويلا، وكان له مواقف مختلفة من القول التأويلي في عصره وما سبق عصره، فكان أن قسم ممن قالوا في التأويل إلى خمس فرق «الفرقة الأولى هم الذين جردوا النظر إلى المنقول، (...) والفرقة الثانية تباعدوا عن هؤلاء إلى الطرف الأقصى المقابل لهم وحددوا النظر إلى المعقول، ولم يكترثوا للنقل(...) والفرقة الثالثة جعلوا المعقول أصلا فطال بحثهم (...) والفرقة الرابعة جعلوا المنقول أصلا (...) والفرقة الخامسة هي الفرقة المتوسطة الجامعة بين البحث عن المعقول والمنقول، الجامعة كل واحد منهما أصلا مهما (...) وهؤلاء هم الفرقة المحقة، وقد نهجوا منهجا قويما»[3]. فيبين الغزالي لأي الفرق مال وتبنى، وهي الفرقة الخامسة التي توسطت بين المنقول والمعقول.

ويعد كتابه "قانون التأويل" خلاصة لنشاط التأويل في عصره، لذلك حدد شروط المؤول وآلياته التي تمكنه من التأويل الصحيح «

. أن يكون ماهرا حاذقا في علم اللغة عارفا بأصلها

. أن يكون عارفا بعادات العرب في الاستعمال والاستعارة ومنهاجها في الأمثال

. أن يكون متقنا للبرهان على طريق أهل الظاهر، وملتزما بما يحيل إليه، وأن ينظر إلى الدليل الباعث على مخالفته، فإن كان الدليل قاطعا بهذه المخالفة فله الرخصة في التأويل بشرط أن يكون اللفظ مناسبا له بطرق التجوز والاستعارة.

. أن يتجنب ما كان سلوكا فيه، وإن كان بعيدا فلا يجوز التصريح إلا بتأويل قريبا سابق للإفهام.

---

[1]. ابن قتيبة: مشكل تأويل القرآن، ص 107، 113.

[22]. بدوي طبانة: البيان العربي، ص 22.

[3]. أبو حامد الغزالي: قانون التأويل، ص 15.20.

. أن لا يكاشف به إلا من ينتفع به وكان من الأكياس، أما العامي فلا ينبغي أن يحدث به»[1]. وهذه الآليات التي وضعها الغزالي، تؤكد على خطورة التأويل وممارسته على النصوص الدينية، خاصة في بيئة كثر فيها الغلط والزيغ، فظهرت مختلف الفرق والاتجاهات التي ترى في مدرستها الأحق بالاتباع.

وفق الغزالي بين العقل والنقل، واختلف عن الفلاسفة والمعتزلة «رأي الغزالي في العقل مختلف عن رأي المعتزلة والفلاسفة لأنه لم يبني المعرفة على العقل وحده، بل بناها أيضا على التجربة الروحية والكشف الباطني»[2]. لأن مشكلة العقل والنقل أثارت الجدل الكبير في فهم النص القرآني في التاريخ الإسلامي، «ولقد ذهب الأشاعرة إلى أسبقية الشرع على العقل، وذلك على عكس المعتزلة الذين أعطوا للعقل دورا أوليا وسابقا على الشرع، وجعلوا الدليل السمعي تابعا لدليل العقلي ومترتبا عليه»[3]. وهذه الوسطية التي تبناها الغزالي هي من صميم العقل الراجح، والنظر الثاقب، العالم بخطورة التأويل وخطورة مساءلة النص القرآني بالهوى والتعصب، وتجميع حوله الآراء والأقوال المختلفة الضاربة عن كل الملل والنحل، وإعطاء قراءات متعددة متباينة الدلالة والمعنى للآية واحدة، فكان ذلك يستلزم التأمل العميق، فأحكم الغزالي الشرع والعقل وكلاهما في تكاملهما منصف في استظهار الحقائق وما خفي عن الظاهر إلى الباطن العميق.

تحدث الغزالي عن المحكم والمتشابه في القرآن «في القرآن محكم ومتشابه (...) واختلفوا في معناه، وإذ لم يرد توقيف في بيانه، فينبغي أن يفسر بما يعرفه أهل اللغة ويناسب اللفظ من حيث الوضع، (...) والمحكم يرجع إلى معنيين أحدهما المكشوف المعنى الذي لا يتطرق إليه إشكال واحتمال، والمتشابه ما يتعارض فيه الاحتمال»[4] لذلك أقر الغزالي أن التأويل في القرآن واجب، خاصة في الآيات المتشابهة التي لا يكون لها احتمال واحد في المعنى، وانطلق منهجه في التفسير بالاعتماد على المنقول والمعقول، أي أخذ بالنهج السلفي والنهج الاجتهادي.

يمثل أبو حامد الغزالي حجة حصينة في التفسير الإسلامي أمام الفرق والاتجاهات التي غالت وغلطت وزاغت في فهم القرآن، وهو بفكره المعرفي المتنوع، انتهج منجا وسطا في التعامل مع النص الديني، فرد على التيارات الفاسدة والملحدة، مؤسسا لطريق سوي في فهم القرآن الكريم.

5. خاتمة

التأويل من الوسائل التي أوجبها علماء الإسلام في التعامل مع الخطاب الديني، ومن خلال هذا البحث يمكن إجمال النتائج المتوصل إليها:

• التأويل والتفسير مصطلحان قديمان في التراث الإسلامي، لكل منهما حدوده المفاهمية وإطاره العملي، فالأول يختص بالباطن الخفي، والثاني بالظاهر المعلن.

[1]. أحمد الزعبي: مسألة المعرفة ومنهج البحث عند الغزالي، ص 308، 309.
[2]. جميل صيلبا: تاريخ الفلسفة العربية، ص 347.
[3]. نصر حامد أبو زيد: الاتجاه العقلي في التفسير، ص 59.
[4]. أبو حامد الغزالي: المستصفى من علم الأصول، ص 107

• انطلق التأويل في النص القرآني من ثنائية المحكم والمتشابه، فأما الأول فلا لبس ولا غموض فيه، لتنصرف الأقاويل للتعامل مع الآيات المتشابهة، فكثر القول، وتعدد المنهج والأسلوب.

• يمثل التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي أكبر الاتجاهات في التراث الإسلامي التي عملت على توضيح وبيان وفهم الخطاب الرباني.

• إن التأويل بوصفه آلية أولية في فهم النص القرآني، وأداة فعالة في مساءلة ومكاشفة المقدس الديني، والوقوف عند باطنه، واستخراج درر المعاني، وحسن الفهم وعجبه، والكشف عن إعجاز القرآن، فإنه أداة استعملها الكثير من الفرق الإسلامية لتأسيس الكثير من الفرق والمذاهب التي نالت حظها من التأويل الفاسد، ومن الزيغ والضلالة في نصوص الذكر الحكيم.

• يمثل "ابن قتيبة وأبو حامد الغزالي" عينة من أقلام الممارسة التأويلية في الخطاب الديني الإسلامي الحسن مأخذه، الراجح رأيه، المجتهد في فتح ما استغلق فهمه دون الميل أو الزيغ.

6. قائمة المراجع:

1. ابن تيمية، تقي الدين، (1972م)، مقدمة في أصول الفقه، (د ب)، (د د ن).
2. حنفي، حسن، (2007م)، حصار الزمن الجزء الأول إشكالات، لبنان، الدار العربية للعلوم ناشرون.
3. الخالدي، صلاح عبد الفتاح، (1996م)، التفسير والتأويل في القرآن، الأردن، دار النفائس.
4. الذهبي، محمد حسين، (1976م)، التفسير والمفسرون، القاهرة، مكتبة وهبة.
5. الرومي، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان، (2018م)، أصول التفسير ومناهجه، الرياض، (د د ن).
6. الزركشي، بدر الدين، (2006م)، البرهان في علوم القرآن، القاهرة، دار الحديث.
7. الزعبي، أحمد، (2000م)، مسألة المعرفة ومنهج البحث عند الغزالي، الأردن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
8. صيلبا، جميل، (1989)، تاريخ الفلسفة العربية، (د ب)، الشركة العالمي للكتاب.1989م،
9. طبانة، بدوي، (1958م،)، البيان العربي، مصر، مكتبة الأنجلومصرية.
10. العيزوزي، لخداري، (2021) المشكل والمتشابه وآليات تأويله في القرآن الكريم عند ابن قتيبة، المدونة، م 08،ع 03.
11. الغزالي، محمد أبو حامد، (1991م)، المستصفى من علم الأصول، السعودية، دار الميمان للنشر والتوزيع.
12. الغزالي، محمد أبو حامد، (1992)، قانون التأويل، سوريا، (د د ن).
13. الغفاري، عبد الرسول، (1431ه)، المحكم والمتشابه، لبنان، مركز المصطفى العالمي للترجمة والنشر.
14. ابن قتيبة، محمد عبد الله، (1973م)، مشكل تأويل القرآن، القاهرة، دار التراث.
15. الكسائي، علي بن حمزة، (1994م)، متشابه القرآن، طرابلس، منشورات كلية الدعوة الإسلامية.
16. كيحل، مصطفى، (2011م)، الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، الجزائر، منشورات دار الاختلاف.
17. ابن منظور، محمد بن مكرم، (1999م)، لسان العرب، لبنان، دار إحياء التراث العربي.
18. النجار، جمال مصطفى، (1998م)، التفسير بالرأي، القاهرة، مطبعة الحسين الإسلامية.
19. نصر حامد، أبو زيد، (1983م)، الهرمنيوطيقا ومعضلة تفسير النص، مجلة فصول، م 01، ع 03.
20. نصر حامد، أبو زيد، (1983م)، فلسفة التأويل، لبنان، دار الوحدة.
21. نصر حامد، أبو زيد، (1998م)، الاتجاه العقلي في التفسير، المغرب، المركز الثقافي العربي.

Bibliography List

- Ibn Taymiyyah , Taqi al-Din , (1972), muqadimat fi 'usul alfiqh, (DB), DDN،
- Hanafi, Hassan, (2007 AD) , hisar alzaman aljuz' al'awal 'iishkalat،Lebanon , Arab House of Sciences, Publishers.
- Al Khalidi, Salah Abdel Fattah , (1996), altafsir waltaawil fi alquran, Jordan , Dar Al-Nafais.
- Al- Dhahabi , Muhammad Hussein , (1976 AD), altafsir walmufasirun ،Cairo, Wahba Library.
- Al Rumi, Fahd bin Abdul Rahman bin Suleiman, (2018 AD), The Principles of Interpretation and Its Methods, Riyadh, DDN.
- Al- Zarkashi , Badr al-Din , (2006), Al-Burhan fi Ulum al-Qur'an, Cairo , Dar al-Hadith.
- Al- Zoubi , Ahmed , (2000 AD), The Question of Knowledge and Research Methodology according to Al-Ghazali, Jordan, International Institute of Islamic Thought.
- Salba, Jamil, (1989), History of Arab Philosophy, (DP) , International Book Company . 1989 AD،
- Tabana, Badawi, (1958 AD), Al-Bayan Al-Arabi, Egypt, Anglo-Egyptian Library.
- Al- Aizouzi , Lakhdari , (2021) The problematic and the similar and the mechanisms of its interpretation in the Holy Qur'an according to Ibn Qutaybah، Al-Mudawwana, vol. 08 , p. 03, p. 09.
- Al- Ghazali , Muhammad Abu Hamid , (1991 AD), Al-Mustasfa min Ilm al-Usul ،Saudi Arabia , Dar Al-Mayman for Publishing and Distribution.
- Al- Ghazali , Muhammad Abu Hamid (1992), qanun altaawil, Syria، (DDN)
- Al- Ghafari, Abd al-Rasoul, (1431 AH), al-Muhkam and al-Musabbath، Lebanon, al-Mustafa International Center for Translation and Publishing.
- Ibn Qutaybah, Muhammad Abdullah, (1973 AD), The Problem of Interpreting the Qur'an, Cairo, Dar Al-Turath.
- Al- Kisa'i, Ali bin Hamza, (1994 AD), The Similar Qur'an, Tripoli, Publications of the College of Islamic Da'wah.
- Kihal, Mustafa, (2011 AD), Humanization and Interpretation in the Thought of Muhammad Arkoun, Algeria, Dar Al-Etifalaq Publications.
- Ibn Manzur , Muhammad bin Makram , (1999), Lisan al-Arab, Lebanon , Arab Heritage Revival House.
- Al- Najjar , Jamal Mustafa , (1998 AD), Interpretation by Opinion, Cairo , Al- Hussein Islamic Press.
- Nasr Hamed , Abu Zaid, (1983 AD), Hermeneutics and the Dilemma of Text Interpretation, Fusoul Magazine, No. 01, No. 03. p. 13.
- Nasr Hamed , Abu Zaid , (1983), The Philosophy of Interpretation, Lebanon، Dar Al-Wahda.
- Nasr Hamed, Abu Zaid, (1998), The Rational Approach in Interpretation، Morocco, Arab Cultural Center.